المعركـــة

نصوص مختارة من الظلال

إعداد وتنسيق : الأخ محمد هلال

الباب الأول : ما هو الإسلام

الحلقة الأولى

معنى الدين وحد الإسلام وشرط الإيمان

الدرس الثاني

الالتزام بمعنى الدين وحد الإسلام وشرط الإيمان أمر لا بد منه لكل من أراد أن يكون مسلماً في حين أن عدم الالتزام به يخرج صاحبه من حظيرة الإيمان[1]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّـــهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الـــشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَـــصُدُّونَ عَنْـــكَ صُدُودًا ۞ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ۞ وَمَا أَرْسَلْنَا مِـــنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۞ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٥٩-٦٥]

هذا الدرس يتناول موضوعاً خطيرا .. الموضوع الأساسي في حياة الأمة المسلمة . إنه يتناول بيان شرط الإيمـــان وحدَّه ، متمثلاً النظام الأساسي لهذه الأمة .. ومن الموضوع في ذاته ومن طريقة ارتباطه وامتزاجه بالنظام الأساســـي للأمة ، يستمد خطورته وخطره ..

إنّ القرآن . وهو ينشئ هذه الأمة وينشئها –وهو يخرجها إلى الوجود إخراجا . كما قال الله تعالى بالتعبير القرآني الدقيق : ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ... ﴾ [آل عمران : ١١٠] .. كان يبدأ فيقيم للجماعة المسلمة تـــصورها الصحيح ، ببيان شرط الإيمان وحد الإسلام ، ويربط بهذا التصور –في هذه النقطة بالذات– نظامها الأساسي الـــذي يميز وجودها من وجود الجاهلية حولها ، ويفردها بخصائص الأمة التي أخرجت للناس لتبين للناس وتقودهم إلى الله ..

وهذا الدرس يتولى بيان هذا النظام الأساسي ، قائماً ومنبثقاً من التصور الإسلامي لشرط الإيمان وحد الإسلام ! إنه يتولى تحديد الجهة التي تتلقى منها الأمة المسلمة منهج حياتها ، والطريقة التي تتلقى بها ، والمنهج الذي تفهم به مـــا تتلقى ، وترد إليه ما يجدّ من مشكلات وأقضية لم يرد فيها نص وتختلف الأفهام فيها ، والسلطة التي تطيعهـــا وعلـــة طاعتها ومصدر سلطانها .. ويقول : إنّ هذا هو شرط الإيمان وحد الإسلام . وعندئذ يلتقي (النظام الأساسي) لهـــذه الأمة ، بالعقيدة التي تؤمن بها .. في وحدة لا تتجزأ ، ولا تفترق عناصرها .

وهذا هو الموضوع الخطير الذي يجلوه هذا الدرس جلاءً كاملاً وهذه هي القضية التي تبدو بعد مطالعة هذا الدرس بديهية يعجب الإنسان كيف يجادل (مسلم) فيها .

إنه يقول للأمة المسلمة : إنّ الرسل أرسلت لتطاع –بإذن الله– لا لمجرد الإبلاغ والإقناع ﴿ **وَمَـــا أَرْسَـــلْنَا مِـــنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ** ... ﴾ [النساء : ٦٤]

ويقول لها : إنّ الناس لا يؤمنون –ابتداءً– إلاّ أن يتحاكموا إلى منهج الله ، ممثلاً في حياة الرسول ﷺ في أحكـــام الرسول . وباقياً بعده في مصدريه القرآن والسنة بالبداهة ، ولا يكفي أن يتحاكموا إليه ليحسبوا مؤمنين بل لا بد من أن يتلقوا حكمه مسلمين راضين :

﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء : ٦٥] .. فهذا هو شرط الإيمان وحد الإسلام .

ويقول لها : إنّ الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت –أي إلى غير شريعة الله– لا يقبل منهم زعمهم أنهـــم آمنوا بما أُنزل إلى الرسول وما أُنزل من قبله . فهو زعم كاذب ، يكذبه أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت :

﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِـــكَ يُرِيـــدُونَ أَنْ يَتَحَـــاكَمُوا إِلَـــى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا** ﴾ [النساء : ٦٠]

ويقول لها : إنّ علامة النفاق أن يصدوا عن التحاكم إلى ما أنزل الله والتحاكم إلى رسول الله

﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا** ﴾ [النساء : ٦١]

ويقول لها : إنّ منهجها الإيماني ونظامها الأساسي ، أن تطيع الله عزَّ وجلَّ في هذا القرآن وأن تطيع رسول الله ﷺ في سنته وأولي الأمر من المؤمنين الداخلين في شرط الإيمان وحد الإسلام معكم

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ** ... ﴾ [النساء : ٥٩]

ويقول لها : إنّ المرجع فيما تختلف فيه وجهات النظر في المسائل الطارئة المتجددة والأقضية التي لم ترد فيها أحكام معينة .. إنّ المرجع هو الله ورسوله .. أي شريعة الله وسنة رسوله ﴿ ... **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ** ... ﴾ [النساء : ٦٤]

وبهذا يبقى المنهج الرباني مهيمناً على ما يطرأ مع الحياة من مشكلات وأقضية كذلك ، أبد الدهر ، في حياة الأمة المسلمة .. وتمثل هذه القاعدة نظامها الأساسي ، الذي لا تكون مؤمنة إلاّ به ، ولا تكون مسلمة إلاّ بتحقيقه .. إذ هو يجعل الطاعة بشروطها تلك ، ورد المسائل التي تجدّ وتختلف فيها وجهات النظر إلى الله ورسوله .. شرطَ الإيمان وحدَّ الإسلام .. شرطاً واضحاً ونصاً صريحا :

﴿ ... **إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ** ... ﴾ [النساء : ٥٩]

وقد وصم أهل الكتاب بالشرك بالله ، لأنهم كانوا يتخذون أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، لا لأنهم عبدوهم ، ولكن لأنهم قبلوا منهم التحليل والتحريم ومنحوهم حق الحاكمية والتشريع ابتداءً من عند أنفسهم فجعلوا بذلك مشركين[٢] .. الشرك الذي يغفر الله كل ما عداه من الكبائر « ... **وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى ! . قَالَ : نَعَمْ . قَالَ :قُلْتُ : وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى! . قَالَ : نَعَمْ ، وَإِنْ شَرِبَ الْخَمْرَ** ... » رواه البخاري .. فرد الأمر كله إلى إفراد الله سبحانه بالألوهية ومن ثم إفراده بالحاكمية فهي أخص خصائص الألوهية . وداخل هذا النطاق يبقى المسلم مسلماً ويبقى المؤمن مؤمناً ويطمع أن يغفر له ذنوبه –ومنها كبائره .. أما خارج هذا النطاق فهو الشرك الذي لا يغفره أبدا .. إذ هو شرط الإيمان وحد الإسلام .

هذا هو الموضوع الخطير الذي يتناوله هذا الدرس . وقد ألممنا به إجمالاً ، فنأخذ في مواجهة النصوص تفصيلاً[٣] .

فأما أولو الأمر فالنص يعين من هم : ﴿ ... **وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ** ... ﴾ [النساء : ٥٩] .. أي من المؤمنين الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحد الإسلام المبين في الآية .. من طاعة الله وطاعة الرسول ، **وإفراد** الله سبحانه بالحاكمية وحق التشريع للناس ابتداءً والتلقي منه –فيما نص عليه– والرجوع إليه أيضاً فيما تختلف فيه العقول والأفهام والآراء ، مما لم يرد فيه نص ، لتطبيق المبادئ العامة في النصوص عليه .

﴿ ... **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا** ﴾ [النساء : ٦٢] .. وهي دائماً دعوى كل من يحيدون عـــن الاحتكام إلى منهج الله وشريعته : أنهم يريدون اتقاء الإشكالات والمتاعب والمصاعب التي تنشأ مـــن الاحتكـــام إلى شريعة الله ! ويريدون التوفيق بين العناصر المختلفة والاتجاهات المختلفة والعقائد المختلفة .. إنها حجة الذين يزعمون الإيمان –وهم غير مؤمنين– وحجة المنافقين الملتوين .. هي هي دائماً وفي كل حين !

﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ** ... ﴾ [النساء : ٦٤]

إنّ الدين منهج حياة . منهج حياة واقعية .. بتشكيلاتها وتنظيماتها وأوضاعها وقيمها وأخلاقها وآدابها وعباداتهـــا وشعائرها كذلك . وهذا كله يقضي بأن يكون للرسالة سلطان . سلطان يحقق المنهج ، وتخضع له النفوس خـــضوع طاعة وتنفيذ . والله أرسل رسله ليطاعوا –بإذنه وفي حدود شرعه– في تحقيق منهج الدين . منـــهج الله الـــذي أراده لتصريف هذه الحياة .. ولم يرسل الرسل لمجرد التأثير الوجداني والشعائر التعبدية ..

ومن هنا كان تاريخ الإسلام كما كان .. دعوة وبلاغا .. ونظاماً وحكماً وخلافة بعد ذلك عن رســـول الله ﷺ تقوم بقوة الشريعة والنظام على تنفيذ الشريعة والنظام .. وليست هناك صورة أخرى يقال لها الإسلام أو يقـــال لهـــا الدين ..

ويقسم الله ﷻ بذاته العلية أنه لا يؤمن مؤمن حتى يحكِّم رسول الله ﷺ في أمره كله ، ثم يمضى راضـــياً بحكمـــه مستسلماً بقضائه ليس في صدره حرج منه ولا في نفسه تلجلج في قبوله ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء : ٥٩]

ومرة أخرى نجدنا أمام شرط الإيمان وحد الإسلام ، يقرره الله ﷻ بنفسه ويقسم عليه بذاته ، فلا يبقى بعد ذلك قول لقائل في تحديد شرط الإيمان وحد الإسلام ، ولا تأويل لمؤول ، اللهم إلاّ مماحكة لا تستحق الاحترام .. فهـــذه حقيقة كلية من حقائق الإسلام ، جاءت في صورة قسم مؤكد ، مطلقة من كل قيد ..

وإذا كان يكفي لإثبات (الإسلام) أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم رسوله . فإنه لا يكفي في (الإيمـــان) هذا ، ما لم يصحبه الرضى النفسي والقبول القلبي وإسلام القلب والجنان ، في اطمئنان !

هذا هو الإسلام .. وهذا هو الإيمان .. فلتنظر نفس أين هي من الإسلام ، وأين هي من الإيمان ، قبـــل ادعـــاء الإسلام وادعاء الإيمان !

ونود هنا أن ننقل –من خارج الظلال– بعض أقوال العلماء في تفسير هذه الآية[٤] .

قال ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية الكريمة : (فدل على أن من لم يتحاكم في محل النـــزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر) .

وقال ابن حزم في الملل والنحل (١٧/٤) : (هذا نص لا يحتمل تأويلاً ولا جاء نص يخرجه عن ظاهره أصـــلاً ولا جاء برهان بتخصيصه في بعض وجوه الإيمان) .

وقال الفخر الرازي في مفاتيح الغيب عند هذه الآية : (ظاهر الآية يدل على أنه لا يجوز تخصيص النص بالقيـــاس لأنه يدل على أنه يجب متابعة قوله وحكمه على الإطلاق وأنه لا يجوز العدول منه إلى غيره . ومثـــل هـــذه المبالغـــة المذكورة في هذه الآية قلما يوجد في شيء من التكاليف وذلك يوجب تقديم عموم القـــرآن والخـــبر علـــى حكـــم القياس).. (فالآية نفسها إذن تفيد أنه لا يمكن تخصيص الإيمان المذكور فيها بوجه من وجوه الإيمان كأن يقال : إيماناً كاملا .. إلخ وتراجع الصفحات ٧٣-٧٨ من كتاب العقيدة وأثرها في بناء الجيل لمزيد من التوضيح في هذه المسألة).

وقال ابن القيم في أعلام الموقعين (٥٣/١) : (ثم أخبر ﷻ أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكّم الطاغوت وتحاكم إليه ، والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حدّه من معبود أو متبوع أو مطاع ، فطاغوت كـــل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله .

---

(١) تفسير الآيات (٥٨-٧٠) من سورة النساء م٢ ج٥ ص ٤٠٧-٤٣٢ من الظلال أو الصفحات (٦٨٤-٧٠٠) من طبعة دار الشروق.

(٢) يراجع تفسير قوله تعالى ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ** ... ﴾ [التوبة : ٣١] من الظلال .

(٣) لا يمكن عملياً بسبب المساحة المخصصة للموضوع في (الرائد) نشر تفسير الآيات بكامله وإنما نكتفي بالإشارة إلى بعض النقاط الهامة ونحن ندعو القارئ الكريم إلى مراجعة تفسير الآيات كاملاً في الظلال لأهميته .

(٤) عن كتاب العقيدة وأثرها في بناء الجيل للدكتور الشيخ عبد الله عزام